سلسلة أمراء النصر والتحرير



صقر من نور

قصّة شـهيد الوعد الصـادق

الشـهيد رأفت ذياب (صقر)

جعفر حسين برق






صقر من نور



جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION
بيروت، لبنان، حارة حريك، شارع دكاش
تلفاكس: ٠١/٢٧٣٧٦٦
ص.ب: ٢٤/٥٣ - ٢٥/٣٢٧
www.maaref.org Email: info@maaref.org



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

• عنوان المسابقة: شهيد الوعد الصادق

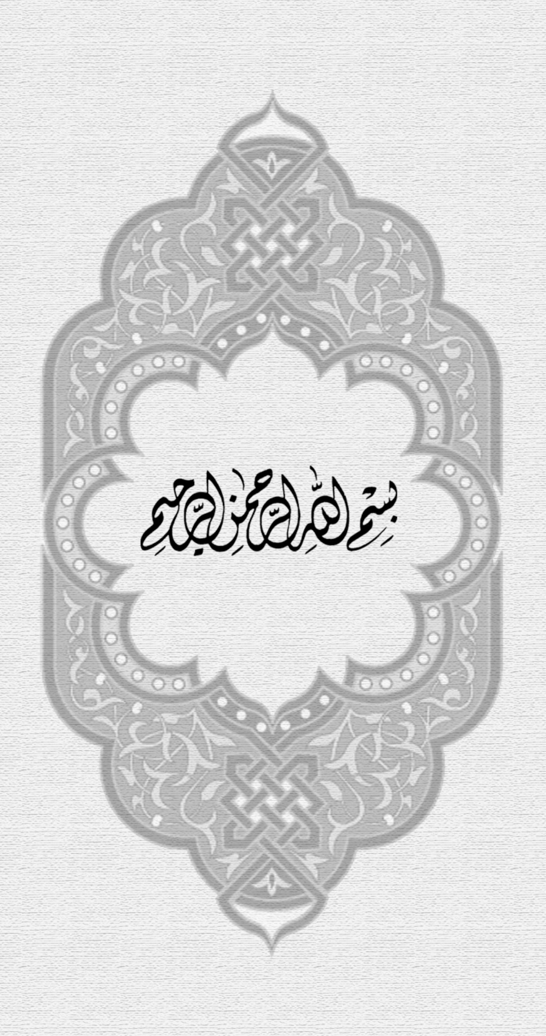
• عنوان القصة: صقر من نور

• الكاتب: جعفر حسين برق

• الرعاية: بلدية الهرمل

• المنظم والناشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى - تموز - ٢٠٠٩م


بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلـى أرواح شهـداء الوعـد الصـادق وإلـى روح الشهيد رأفت ذياب أصغرهم سناً...

من مقاعد الدراسة...

إلى صفوف المقاومة...

إلى قافلة الشهداء...

«ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا»...

أهديهـم كلمـات وأرجو شفاعتهـم فإنهم أمراء أهل الجنة.

... لرأفـت عيون تكشفه، فهو موغل في الصمت وهي كثيرة البوح...

صقر من نور

مقدمة

ثلة من المقاومين اختارهم اللّه ومنّ عليهم بدخول الباب الذي جعله لخاصة أوليائه، كما اختار ثلاثة وسبعين لشاطئ الفرات... حيث العطش ودماء زكية هناك، وليس أوفى وأخلص من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ...

وهنا ليس أوفى وأخلص من أنصار السيد حسن نصر اللّه...

مضوا للجهاد وكان منهم الشهداء...

وكان أصغرهم سناً الشهيد رأفت...

الذي لا تزال خطواته طرية في طريق الجهاد

عَبَرَ من شمسطار إلى زبقين.

انغرست أقدامه في التراب، ولم تتزلزل، لم يتراجع... أبى أن يعود مقسماً أن ينال إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة...

فنالهما معاً..

لم ينتظر نتائج الامتحانات ليحصل على شهادته.

إنه لم يطلبها لجاه أو منصب دنيوي بل أرادها لينال الشهادة...

أراد العلم ليصنع به تاريخاً جديداً للأجيال القادمة.

صقر من نور

استبدل الحقيبة المدرسيــة بجعبة وخلع قميص المدرسة مرتدياً بذلة عسكرية، مبدّلاً أقلام الرصاص برصاص السلاح...

رحـل بعمر الورود، فإن أعمار الرجـال ليست بعدد السنوات وإنما بقيمة ما أنجز...

هي بطولات يمجّدها التاريخ..

لأن من شارك بصنع النصر الإلهي ليس كمن تحدث عنه.

أتحدث عنك يا رأفت بأحرف من نور،

بعدما كتبت تاريخنا بأحرف من دماك...

.... كلما أطلَّ الربيع، احتفل رأفت بذكرى مولده فصار هو والربيع توأمان...

الولادة والطفولة

في صباح ربيعي أضفى جمالاً على سماء شمسطار الصافية، فتحت ابتسام نافذتها فسبح نظرها في الروابي والمروج، واكتب روحها النهار الطالع، أطربت أذنيها زقزقة العصافير، وداعبت أشعة الشمس الدافئة وجهها فصبغته بحمرة خفيفة. تحسست وجهها جيداً علّها تعرف السرّ الذي جعل الحرارة تتوهج وتشع من عينيها الواسعتين، وقد تعبت من آلام الحمل...

تنشقت عبير الورود من كل الأشكال والألوان، تفقدت الياسمين فوجدتها ولدت لألف قمر أبيض، والليلكة تحتضن البنفسج، متى تحين ساعة ولادتي؟

وردة تفتحت في ربيع أيار عام ١٩٩٠ في بيت الحاج حسين ذياب عند انتصاف النهار فيما شمس البقاع الأرجوانية تشع بدورها في السماء، تعطي نورها الدافئ لحقول القمح الذهبية ، وضعت ابتسام ولدها (آخر العنقود).

توافدت المهنّئات من جاراتها وبعض الأقارب للتبريك بإشراقة مولود آل ذياب...

- الحمد لله على سلامتك يا حاجة ابتسام.

- الله يسلمك.

- إن شاء الله كانت الولادة يسيرة.

- الحمد لله كانت أسهل ولادة. المرة الأولى التي ألد فيها بهذه السهولة.

- يتربى بعزك إن شاء الله.

- انظري إلى وجهه الملائكي.

- هل اخترتم له اسماً؟

- الحاج حسين اختار له اسمه «رأفت».

تنقل «رأفت» من يدٍ إلى يد ومن حضنٍ إلى آخر إلى أن استقر في حضن والده، وبدوره أذّن في أذنه اليمنى لتكون كلمات التوحيد أول كلمات يسمعها...

تأمل الحاج حسين عينيه العسليتين فلمح فيهما هدوءاً وبراءةً:

- سبحان الله ما أجمل تلك العيون.

- دعه ينام ليربّي صحة.

كانت جدته تردد هذه العبارة كلما رأت ولدها الحاج حسين وقد يحمله ويضمه إلى صدره.

إنه الحياة، يبعث الروح في كل جماد المنزل، من صراخ إلى بكاء أو مناغاة وضحك... لا يعرف الكلل ولا الملل، يحبو تارةً ويقف مرةً ويقع مرات...

دبّ وترعرع رأفت في بيت ريفي بسيط في الحارة الغربية لشمسطار

لذلك البيت باب خشبي يطلّ على حقل.

في باحة الدار كان رأفت وإخوته يلعبون ويتسابقون في تسلّق اللوزة، وكان رأفت أسرعهم، فبأقلّ من دقيقة يصبح في أعلى الشجرة، فإذا تعثر يتعثر بغصن اللوز،

وإذا سقط يسقط في حضن وردة،

يلحق ركب الفراشات بينما يأكل عروسة «صعتر» ويختبيء من النحلة كما أوصته والدته.

ضمن هذا الحزام الأخضر ولد، ودبدب على يديه ورجليه، ونطق كلماته الأولى... تتبدل الحيوية الطاغية على البيت بسكونٍ عندما يسدل الليل ستاره، وينام «رأفت»...

تتسلل ابتسام بهدوء من غرفته بعد أن تطبع قبلة على جبينه قائلةً: «من غير شر».

الانتقال إلى بيروت

تأثرت عائلة الحاج حسين ذياب بالظروف المعيشية الصعبة التي عانـت منها القـرى البقاعية المحرومـة، ومن بينهـا شمسطار، مما اضطرهـا للانتقال إلى بيروت لكي يعمل الوالد، فاستقرت العائلة في «صحراء الشويفات»...

أمـا بيتهم الريفي فقد خلا من كل شيء عـدا ذكرياته التي بقيت تدغـدغ مشاعـره، سيما أرجوحته التـي علّقها له والـده بين أغصان شجيرات الزيتون...

وبقـي ملاذهـم لفصل الصيـف، فيما ترعـرع رأفت منـذ نعومة أظافـره فـي «الشويفات»، في منـزل مفعم بالإيمان الفطـري، لعبته المفضلـة أن يصنع عِمّة سـوداء ويلبس نظارات جدتـه معتلياً منبراً صنعـه من بعض الأخشاب ليلقـي مقطعاً من خطـب سماحة السيد حسن نصر الله التي حفظها عن ظهر قلب، يلقيها تارة ويصمت تارة أخرى منتظراً التصفيق والصلوات على محمد وآل محمد...

صديقتـه المفضلة جدته، يجد راحته في الجلوس إليها والاستماع إلـى قصصهـا الجميلة وحكمهـا الكثيـرة، كلما مالـت الشمس نحو

صقر من نور

الغـروب ينتظرهـا رأفت بفـارغ الصبر حتى تنهـي صلاتها فهو على موعد يومي مع حكاية من جعبتها.

أشرق وجهه مبتسماً لقدوم الجدة، بالأمس وعدته أن قصة اليوم مميزة... كان يا ما كان في قديم الزمان على مرّ العصور والأزمان، عدوٌ لا يعرف الرحمة استباح حرمات الجنوبيّين محتلاً قراهم، مرتكباً المجازر المروعة بحقهم، فكان منهم من استشهد ومنهم من تهجّر تاركاً أرضه وأرض أجداده خلف الشريط المحتل، وأيضاً من أبناء تلك القرى انطلقت المقاومة، شباب يافع، رفضوا الظلم لأنهم أصحاب حقّ، اشتعلت بداخلهم ثورة كربلاء فانطلقوا دفاعاً عن الوطن والكرامة والمسجد والعرض، استمدوا شجاعتهم من أمير المؤمنين عليه السلام وتعلّموا التضحية والفداء من الامام الحسين عليه السلام ، فسلكوا الطريق الوعر الذي يصنع الرجال...

- وأنت يا رأفت «قل يا رب وامشِ» الشجاع لا يموت على فراشه... إن شاء الله عندما تكبر أريد أن أراك واحداً من هؤلاء المقاومين.

ختمـت الجدة حكايتها، ثـم غطّت رأفت بدثار يقيـه من برد تلك الليلة الخريفية...

انتزعـت نظاراتها السميكة بعدما أطفـأت ضوء المصباح واتّكأت على عكازها العتيق مغادرة غرفته....

أغمض عينيه وبدأ يحلم أنه سيكبر ويلتحق بهؤلاء المقاومين....

تناهـى إلى مسامعـه صوت والديه يتجاذبـان أطراف الحديث مع جدته:

- بكرا بيكبر وبيلحقهم! بالأمس كانت تغبط فيه نعمة الطفولة.

- عندما يدرك حقيقة هذه الدنيا لوحده سيسلك طريق المقاومة.

- علينا أن نشربه مفاهيم الجهاد من الآن، على الرغم من أنه لم يتجاوز العشر سنوات بعد، لكن سلوكه وتصرفاته يوحيان بأنه أكبر من عمره....

صقر من نور

نشأته ودراسته

صحا رأفت من نومه على صوت قطرات المطر تقرع نافذة غرفته، تسلل إلى أذنيه ترنيم صوت والده يتلو آيات من كتاب الله تعالى: ﴿**إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً**﴾ خشع قلبه لدى سماعه لذكر الصلاة، فقصد والده طالباً منه أن (يعلمه الصلاة).

أدرك الحاج حسين أن المسؤولية الشرعية تجاه ولده تبتدئ حين يميز ويبدأ بالسؤال فيكون قد بلغ درجة معرفة الصواب من الخطأ...

وقد توسم فيه نضجاً مبكراً فعلّمه الصلاة وطلب منه أن يحفظها ويحافظ عليها لأنها عمود الدين والصلة بين الخلق وخالقهم.

مساء ذلك اليوم اصطحبه والده إلى مسجد لأداء أول صلاة له...

أحب رأفت المسجد فكان يسارع إليه عند كل صلاة فلازمه منذ صغره وما فارقه لساعات، ولكثرة تردده إلى المسجد كان كلما سأل عنه أحد يأتي الجواب تلقائياً «بتلاقوه بالجامع»، فقد اعتاد أن يمر إليه يومياً بعد عودته من المدرسة وفور إتمامه لدروسه اليومية

ليـؤدي صلاته، ومع كل فجر أنصتت جدران المسجد لتسبيحه وأناته ومناجاتـه، وأصبح له حضـوره في كل ركن تقام فيـه مجالس العزاء عن أرواح أهـل البيت عليهم السلام ، وزيارات الأئمـة المعصومين عليهم السلام ، كان هو السبّاق دائماً لحضور حلقات الدروس لينهل من تعاليم الشيخ بـلال ناصر الديـن، الـذي كان الأب الروحـي لرأفـت، فواظب على دروسـه الجهادية والدينية فتعلـم منه الفقه وأحـكام الدنيا، مشنفاً أذنيـه للدروس التي ولّدت عنده نـوراً وهاجاً يضيء لـه درب الحياة فاكتسـب أرفـع الأخلاق واشتعلت فـي وجدانه شعلة الجهـاد فأنست روحه وجوارحه لدروس الشيخ بلال عن الجهاد...

علـى عتبـة المسجد وقد بـدأ الليل يدثر السمـاء بالظلام، هناك وقف وجهاً لوجه أمام الشيخ شاكياً إليه حاله:

– يـا شيخ، أمر غريـب يجذبني ويعتصر قلبي شوقـاً إليه، عندما أستمـع لحديثـك عـن الجهاد وعن خاصـة أولياء الله وكيـف عشقوا الشهادة.

– جعلك الله منهم، وسدد خطاك.

– فتدمع عيناه العسليتان ويجيبه:

– مشتاق إلى الجنة، حدثني عنها، عن شكلها...

وراح حـب المجاهدين يسري في عروقه لدرجة أنه كان يبكي عند الاستمـاع إلـى قصصهم فـي أثناء جلوسـه مع أصحابـه في جنبات المسجد.

فـي البدايـة لم يظهر حبه للشهـادة لكنه كان يبـدي تأثراً شديداً

عندما يستمع لأخبار المقاومين ممّن يكبرونه عمراً،

فبدأ يعد الزاد ويسأل عن أقصر الطرق للوصول إليهم.

حفـظ مسجد الشويفات صـوت خطوات رأفت لكثرة تـردّده إليه، وكان يركن إلى زوايـاه أثناء حضوره دورته الثقافية الأولى التي سمح لـه بالانتسـاب إليها بعد طول انتظار... فرأى فيهـا بوابة الفرج لأنها الخطوة الأولى ليسمح له بالالتحاق بدورة عسكرية...

وهكذا...

راح يتعلّم محطات حياته الجديدة فكان ينتظر الدروس السياسية بفـارغ الصبـر، متتبعاً أخبـار المقاومة التي كانت فـي تلك المرحلة (التسعينيات) توجّه ضربات موجعة للعملاء بهدف حلّ الميليشيات، كي تجبر جنود العدو على مواجهة المقاومين وجهاً لوجه ممّا أوصلهم إلى مرحلة من الضعف واليأس والإحباط... جرّاء العمليات البطولية التي حصدت من العملاء وقادتهم أعداداً كبيرة.

وفـي مطلع العـام ٢٠٠٠ بدأت ترتفـع أصوات الجنـود الصهاينة وعملائهـم عن جنوب لبنان الذي روته دماء الشهداء الأبرار (فأزهر نصراً بعد الاندحار المذل لفلول العدوّ...).

مـع إشراقة فجـر التحرير في العـام ٢٠٠٠، رسخ فـي قلبه يقين كامـل بـأن المقاومة التـي استعـادت الأرض بعزة وقـوة هي طموحه وغاية ما يهفو قلبه للوصول إليه، بعدما أجبرت العدوّ على الانسحاب انسحاباً مذلاً ولم تسمح له أن يحقق أي مكسب أو أن يوظّف انسحابه سياسياً.

صقر من نور

كان يتابع أيام العرس الوطني الكبير.

بـدأ عرسـ النصر العظيـم..... بينمـا راحت قنـاة المنار تزف بشرى التحرير لكل الأهل والأحبة بعد ثمانية عشر عاماً من الاحتلال المرّ...

ذلـك المسـاء عندما أطـل سماحة السيـد حسن مـن بنت جبيل بعمامتـه السوداء الشريفة وعباءته الطاهـرة، ببشرته السمراء التي تقطر هيبة ووقاراً ليعلن على الملأ أن اليوم لبنان وغداً فلسطين...

بكـى رأفـت وامتزجـت أحاسيس الفـرح والأسى في نفسـه شوقاً للإلتحاق بصفوف المقاومين الذين حقّقوا هذا النصر العظيم. فلم يكن التحاقه في صفـوف كشّافة الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف بحجم طموحاته وقلبه العامر بالأمل أن يبلغ السنّ الذي يسمح له ببدء العمل مع التعبئة في خريف ذلك العام.

عندما عاد إلى المدرسة

كان يطـوي الأيام ببطء، وكأن الزمن ألقى بخطواته المتثاقلة على تلك المقاعد، التي تشهد وتروي حكايات عن ذلك الشاب، الذي تعلقت روحـه بعالم آخر، فهنا على هـذا المقعد أحاديث بينه وبين المعلم لا تنتهـي فقـد طلب المعلم يومـاً من الطلاب أن يتحـدث كل منهم عن أجمـل أمنية لديه أو أجمل عمل يتمنى أن يقوم به، انهمك الجميع في كتابة موضوع التعبير،...

فـي زاوية من زوايا الصفّ وفي آخـر طبقة منه جلس رأفت هادئاً كعادته، شعره الأسود الفاحم يغطي قسماً من جبهته، وسحنته الطيبة

البيضاء، زادته جمالاً، وقد لازم عينيه حزن دفين عكسه بريق مشع كأنه تكسرات دمع منعها أن تسيل، فتحجرت في حدقتيه نظر الأستاذ إليه إذ لاحظ أنه غير متحمس للكتابة.

- ما بالك يا رأفت... ألا ترغب في الكتابة؟!

- لم أعهدك إلا تلميذاً مثالياً...

- لم يعد في ذاكرتي ما أحب وأطمح إليه.

- غريب قولك! ألست كأترابك؟ أليس لديك هوايات أو طموحات للمستقبل؟

- عذراً يا أستاذ... دعني أوضح لك...

- طالما حلمت وانتظرت اليوم الذي أبلغ به السن الذي يؤهلني للقيام بأجمل الأعمال وأحبّها إلى قلبي، ألا وهو الالتحاق بصفوف المقاومة دفاعاً عن الأرض والكرامة ضد ظلم وهمجيّة العدوّ الصهيوني ولكن بعد تحرير القرى الجنوبية في شهر أيار المنصرم، أشعر أن أمنيتي صعبة المنال...

- صرّح رأفت بأحب الأعمال إلى قلبه، فازداد إعجاب أستاذه به واحترامه لشخصيّته المتّزنة وأدهشه تشوقه للانخراط في صفوف المقاومة، فخاطبه بقوله:

- أرأيت لديك عمل تحبّ أن تقوم به حدثنا عنه إذاً.

جلس الأستاذ في مكانه وعيناه شاخصتان بوجه رأفت وهو في قرارة نفسه يغبطه على هذا القلب العامر بالولاء الجميل لنهج المقاومة.

صقر من نور

لم تكن لرأفت هوايات كثيرة، لكن حنين الذكرى إلى البيت القروي الـذي ولد فيـه وعاش أيام طفولتـه الأولى بين جنباتـه دعاه ليقضي العطلة الصيفية هرباً من حرارة فصل الصيف وكان الشهر شهر آب وآب في القرية ليس كآب في المدينة...

هـواء آب في القرية نقي لا يحمل الغبـار أو الرطوبة المعهودة في المدينة...

وجد كل شيء على سجيته بين الأزقة حيث تختبئ الذكريات وقبل انقضـاء أول أيـام العطلة أبلغ رأفـت أنه وأخيراً تمـت الموافقة على التحاقه بأولى دوراته العسكرية...

لم يصدق الخبر...

كان دائماً يتقدم بالطلب ثم يُرفض لصغر سنه...

ويصرّح عن تشوقه لبلوغ العمـر الذي يؤهله للخضوع لتلك الدورة لأنهـا أول خطوة له على درب الجهاد، والتي تؤهّله للإلتحاق بصفوف التعبئة مع والده وأخيه الأكبر...

وضّـب حقيبته في أقل من خمس دقائق، مودّعاً أهله ثم ركض إلى الوعر الذي يصنع الرجال.

لـم تصـدق والدته ما جرى أمـام عينيها، دقائق معـدودة وعادت إلـى وعيها أخذت تتذكر عندما كان يخاطبها بينما انهمكت بالأعمال المنزلية محاولاً أن يلفت نظرها لشاربه الذي نبت، فتضحك دون أن تلتفت إليه، فيصرّ عليها أن تنظر لإحدى علامات رجولته راكضاً إلى المرآة ليؤكد لنفسه:

- نعم، نعم إنه خيط رفيع من الشارب قد نبت.

مع هجرة طيور أيلول، مؤذنة بحلول فصل الخريف...

بدت الشجيرات عارية من أوراقها، في ليلة خريفية ملبّدة سماءها بالغيوم الرمادية عاد رأفت من الدورة والسعادة تغمر قلبه وفرحته لا توصف.

قبّل يدي والده هامساً في أذنه:

- أخيراً أنا معك في التعبئة.

ثم التفت ناحية أخيه قائلاً:

- من الآن فصاعداً لن تتباهى أمامي، صرت مثلي مثلك.

بعد خضوعه لتلك الدورة صار يتحدث كثيراً عن الشهادة أمام رفاقه وأهله وهم يلاقون حديثه بكثير من الاستغراب والاستهزاء أحياناً حتى أنه قال لأحد أصدقائه:

- أنا سأستشهد قريباً.

فضحك صديقه رادّاً عليه:

- وما دخلك أنت بالشهادة؟!

فأصر رأفت على قوله:

- بكرا بتشوف كيف؟ كانت المرة الأولى التي يُظهر فيها حبه للشهادة بوضوح لانها خلاصة ما حملته شخصية فتى لا يزال يتابع دورته الأكاديمية...

وبقي على هذا المنوال إلى يوم تبدلت فيه أحوال العاشق فقد حانت ساعة اللّقاء، لقاء نور رأفت بنور الحق، فمن يستطيع أن يمنع

القــدر أن يقع، بل مــن يستطيع أن يقف بوجه رأفت إذا ما حل بساحة عمــره الموعد الذي انتظره لتحقيق حلمه، لكنه أجاد اختصار مسافة الانتظار بعمق وعيــه، فكان اليوم الأول من أيام تموز موعد المرابطة الأولــى التي انتظرها منــذ سنتين برغم معارضة بعض الإخوة على مشاركتــه، إلا أن إصــراره الغريــب وإلحاحه المستمــر، وحماسته لم تترك لمسؤوله الخيار فقبله مع السائرين بتعطش لرؤية تراب الجنوب الذي دفن في طياته ذكريات منسوجة في فوهة بندقية مقاوم.

الوعد الصادق

مشى رأفت بين صفين من البيوت يفصل بينهما ممر ترابي لا يخلو من الحجارة، عائداً من مسجـد الإمام زين العابدين عليه السلام ، بعدما قرأ دعاء «التوسـل»، كعادته في كل مساء من ليلة الأربعاء، وملامحه الفتيّـة تتربّع وسطها بسمة أمله المشرق بانتظار شروع فجر الصباح ليغادر إلى حيث المرابطة الأولى له...

كانـت الأصوات تتناهى إلى سمعه بشكل متصاعد كلما اقترب من بيته وعيناه مصوّبتان أبداً إليه ليزف الخبر لوالدته...

استقبلته الحاجة ابتسام ببشاشة وهتفت قائلة:

تعال إلى هنا ماذا بيدك؟

- إنها لائحة الحاجيات التي يسمح لي بأخذها معي لقد...

أدركت على الفور أن الوقت قد حان لتعترف بأنه لم يعد طفلاً:

- لكنـك كنـت متعبـاً. على الأقـل أجّل ذهابـك إلـى أن تنخفض حرارتك!

فابتسم لها منحنياً يقبّل يديها:

- سأكون هناك على أفضل ما يرام، طقس الجنوب يلائمني.

وعلى طريقته أضفى على سهرتهم نكاته ومزاحه الجميل...

قرابة الساعة العاشرة ليلاً تحلّق الجميع حول «سدر» الطعام لتناول العشاء.

أحضرت الحاجة ابتسام فناجين الشاي وقالت:

– من حواضر البيت.

ثم تطلعت صوب رأفت فوجدته يحدّق فيها، فسألته:

– ألن تأكل؟ إنه آخر عشاء لك بيننا.

رد رأفت بهدوء:

– أود أن أنام فعليّ أن أستيقظ في الخامسة فجراً.

– أنا سأتولى مهمة استيقاظك...

في اليوم التالي – على باب غرفته – رآها تنتظره فيما كانت تحمل المصحف الشريف بيدها، طلبت منه أن يمر من تحته لتضعه على رأسه:

– كتاب الله سيحميك. قبّلها مودعاً إياها بكلمات الشكر والبرّ... وغادر المنزل إلى حيث حُدّدت نقطة التجمع لبداية رحلته...

– سأعود قريباً.

آخر جملة نطق بها رأفت قبل مغادرته.

وهكذا خطّت الحياة إلى الأمام خطوة جديدة لرأفت ابن السادسة عشر ربيعاً، وبرزت مكنونات روحه وقدراته التي كانت سجينته في مراحل حياته السالفة.

أسبوع مضى على وجود رأفت في المرابطة، عندما سمع بخبر

أسـر الجنديـيـن الاسرائيليين، أول مـا تبادر إلى ذهنـه الوعد الذي قطعـه سيد المقاومة فـي بنت جبيل عندما قـال: «نحن قوم لا نترك أسرانـا ومعتقلينا في السجون...» بـدا جلياً أن المقاومة أقدمت على أسـر الجنديين بهـدف استعـادة الأسـرى والمعتقلين فـي السجون الاسرائيلية.

تمنى أن يعانق والدته في تلك اللحظة، لأنها ستكون شديدة الفرح بهـذا الخبر، فقـد كان يعتصر قلبها الحنون مـن الألم عند سماعها لمعانـاة الأسرى وألم فراقهم عن أهلهم وأحبتهم ولطالما رآها ترفع يديها بالدعاء: «اللهم فك كلّ أسير من أيدي الظالمين».

لقد مزج حبّه لعائلته بعشقه للجهاد فازداد عزمه واندفاعه...

فقـد عرف عن كثـب أهمية هـذا الإنجاز فراح يـوزع قبلاته على الإخـوة المجاهدين متبـادلاً التهنئة معهم، فيما تولّـى أحدهم توزيع الحلوى (بما تيسر) فالنداء بدأ يقترب وقد أقسم أن يلبّي النداء...

أنا اخترتك

تحلق الجميع حول جهاز الراديو للاستماع لكلمة سماحة السيد حسن نصر الله عبر أثير إذاعة النور.

قال رأفت:

- صلّوا على محمد وآل محمد.

فارتفعت الأصوات بالصلاة:

- اللهم صل على محمد وآل محمد.

جلسوا بهدوء للاستماع لكلام السيد الذي مزّق الصمت بصوته الرّزين: في صباح يوم الأربعاء المصادف ٢٠٠٦/٧/١٢، عند الساعة التاسعة وخمس دقائق، وتنفيذاً للوعد الذي قطعته المقاومة على نفسها بتحرير الأسرى والمعتقلين، قامت المقاومة الإسلامية في لبنان بعملية «الوعد الصادق» وأنتجت عن أسر جنديين اسرائيليين في منطقة عيتا وتحديداً خلة وردة – عند الحدود مع فلسطين المحتلة، وتم نقل الأسيرين إلى مكان آمن.

ثم حذّر العدو الاسرائيلي – باعتبار أن الاسرائيليين سيجتمعون عند السابعة مساء لبحث كيفية الرّدّ على عملية المقاومة – أن

الأسيرين لن يعودا إلى الديار إلا عبر التفاوض غير المباشر والتبادل، وأن أفق الخيار العسكري لاستعادتهما أفق معدوم...

كان حـزب الله مستعداً دائماً للمواجهة ضد العدوّ الاسرائيلي لأنه يعرف عدوّه وغدره...

فكان من الألطاف الإلهية أن يكون المجاهدون على أهبّة الاستعداد لمواجهـة العـدوان الاسرائيلي الـذي كان مخططاً له عمليـاً في أيار ٢٠٠١ والغاية منه القضاء على حزب الله والتخلص من المقاومة.

(لكن حساب الحقل لم يطابق حساب البيدر).

فقـد أعدّ الحزب مقاتليه إعداداً تكتيكياً جيـداً وأعدّ أيضاً الكثير من المفاجآت للاسرائيليين...

لمواجهة أقسى وأصعب حرب في تاريخه...

كان الجنوب المسرح الأخطر لفصول العدوان الاسرائيلي الوحشي علـى لبنان مما دفـع بمسؤول المجموعة في بلـدة «زبقين» أن ينصح «رأفـت» بمغـادرة الجنوب بسبب صغـر سنه وقلّة تجاربـه في الحقل الميداني للمواجهات:

- أنّى لي أن أعود وقد لاحت الشهادة أمام عيناي.

- إنها حرب حقيقية وأنت لا زلت صغيراً.

- إنهـا الحـرب التي فتحت لي نافـذة أفق لتحقيـق حلمي الأكبر، لـم تخطر في بالـي العودة قطّ، ولـم يخالج قلبي الخـوف... سأبقى معكم...

ثبـت رأفت وثبتت أقدامه في التراب وبقي المبادر الأول والمسارع

لتنفيـذ أي مهمـة تـوكل إليـه لان تلك الـروح الثورية هي نتـاج تربية أصيلـة وعشق الجهاد هو ثمرة شجرة مباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء...

في ظهيـرة يوم الثلاثاء (٢٨ تموز)، اليوم السابع عشر من عملية الوعد الصادق، تحولت سماء المنطقة إلى بحر هائج ومتلاطم بفعل الأصـوات المدويـة لانفجار القذائـف الصاروخيـة، وشمس الجنوب الذهبيـة تشـع بدورها بشـكل يلائم حالـة النيران الغزيـرة ومع كل انفجـار كان التـراب والغبار والدخان يرتفع في عنـان السماء، كانت اللحظة لحظة الموت والزمان زمان العشق بالنسبة لرأفت...

ففي هذه الأجواء المليئة بنيران العدّو وإذا بأوامر تصدر إلى مجاهدي المقاومة الإسلامية من القيادة في منطقة «زبقين» التي كانت تتعرّض لقصف شديد من قبل طائرات العدوّ، وكانت مكشوفة لطائرات التجسس قضت الأوامـر التصدي لاحتمال قيام العدو بإنزال في أحراش بلدة «زبقين»، فكان عليهم اختيار استشهادي للمهمة... فسارع رأفت لطرح اسمه محـاولاً لفت نظر مسؤول المجموعة قائلاً:

«أنا أصغركم سناً، وليس عندي أولاد ولا مسؤوليات فاتركوا المهمّة لـي»، بذلك الاندفـاع الحقيقي المدفـوع بالوعي الدينـي والسياسي، وللمـرة الأولى استعمل صغر سنـه لصالحه حيث وافق مسؤوله وأوكل المهمة إليه.

فانطلق في حماية الله بقلب مؤمن غير خائف، مغوار شجاع، وسلّم

علـى إخوانه المجاهدين بعد أن تزنّر بالرصاص والقنابل، ورابط في خنـدق لوقت طويل صابراً محتسباً، مستعداً، للتضحية بنفسه وإنقاذ رفاقه الذين كانـوا معه، فجسّد قمّة الإيثار، وكان شعلة درب الأحرار ونـذر جسده من أجـل أن تحيا أرواح رفاقه، فيما كانت القذائف تفلح أرضاً لم تنبت سوى الشهداء.

قضـى رأفت ليلته ملتزماً تكليفه، وفـي صبيحة اليوم التالي، طلب منه قائد المجموعة عبر جهاز اللاسلكي الانسحاب:

- عافاك الله، المسألة قد انتهت.

عـاد رأفت من الخندق فيما ارتسمت علامات الحزن على تقاسيم وجهـه الملائكي، لقـد تراجع رغماً عنـه التزاماً بالتكليـف لأنه يعي جيداً أن الشجاعة تعني أيضاً الالتزام بأوامر القيادة، والفهم العميق للمبادئ والقيم...

تقدم منه أحد المجاهدين ثم قال له بلهجة المواسي:

- لقد أبليت بلاءً حسناً.

- لم تكن تفصل بيني وبين الله سوى قذيفة.

- إننـا نعيش اللحظات الفاصلة بين الحيـاة ولقاء الله، فالمعركة قاسية.

- إمـا النصـر وإمـا الشهادة، لـن أتوقّف عن السعـي لنيل إحدى الحسينيين.

فجر يوم الجمعـة وككل يوم من أيام الحرب خرج أحد المقاومين لجلب المـاء لإخوانه المجاهديـن، فوجئ برأفت يطلـب منه حصته

من مـاء الشرب ليغتسل به غسل الجمعة.. تردد قليلاً قبل أن ينصاع لرغبته.

بعد أن اغتسل رأفت، افترش الأرض التي لامست أقدام المجاهدين لأداء صلاة أمير المؤمنين عليه السلام، جاعلاً من ساحة المعركة مسجده، كانت ملاذه في تلك اللحظات للانتقال إلى المطلق، صلى رأفت صلاة مودعٍ ولم يطلب من عطاءات الله غير عطاء الشهادة:

- إلهي أنا عطشان، إلهي بعطش الحسين عليه السلام،

اسقني من كأس الشهادة شربة لا أظمأ بعدها أبداً...

«مـن صلى صـلاة أمير المؤمنين خرج من ذنوبـه كيوم ولدته أمه وقضيـت حاجته» حديث للإمام الصادق عليه السلام، سمعه مراراً من فم الشيـخ بلال ناصـر الدين وفي مسجد الإمـام زين العابدين عليه السلام، لـم يطل انتظـار رأفت، بعدما أمضى في زبقيـن ثلاثة وعشرين يوماً كان صبـاح يوم السبـت ٥/آب/٢٠٠٦، عندما تعرضـت زبقين لغارة صهيونيـة أصيب رأفت في رأسـه ما أدى إلى استشهـاده على الفور، وكان المجاهدون في مكان قريب منه فصاح أحدهم:

- إنا لله وإنا إليه راجعون، استشهد رأفت.

فانتبـه الجميع بتعجب لملامح وجهه التي لم تعد واضحة في شدّة النور الذي يخرج منه.

انبعـث النور من بين عينيـه «صقر» لحظة الوصـال، لحظة لقاءه بمعشوقه، نوره يسعى بين أيديه،

بـدأ الإخوان يصرخـون لبعضهم أنهم كانوا يرون نـوراً ينبثق من

بين عينيه ولكن أحداً لم يجرؤ على قول ذلك،

باحـوا بسرّه، عندما تحول إلى شـذرات نورانية تلهم كل مؤمن في أي عصـر، معنى أن يحيا الإنسان بموته، إذ جعل من موته حياة أمّة، برغم ضراوة تلك الحرب لم تهتزّ أقدامه كرجال المقاومة البواسل.

سأل أحدهم: ما هو شعور الشهيد لحظة لقاء الله؟!

– لقـد بلغ رأفت هـذا الشعور منذ اللحظة التـي صلى فيها صلاة أمير المؤمنين عليه السلام.

– لقـد ارتـاح جسده لحظـة التصاقه بالأرض وانتقلـت روحه إلى جوار أمير المؤمنين عليه السلام.

أغمض رأفـت عينيه مصغياً إلى صدى أصـوات رفاقه من عليائه ملبياً دعوة إلى الجنة التي عشقها دوماً وأكثر من السؤال عنها.

أمي وداعاً

عـاد الأهالي إلى قراهـم وبيوتهم المدمّرة بالرغـم من أن العدو لـم يعلن وقف إطلاق النار فكان المشهد الرائع المعبّر عن شعب حيّ مصمّم على البقاء في الأرض أيّاً تكن المخاطر.

ثلاثة وثلاثون يوماً، سطّر خلالها مجاهدو المقاومة أروع البطولات مصمّميـن على الحيـاة العزيزة، فانقلـب السحر علـى الساحر بعد صمودهم الأسطوري، وأنبتت الأرض مشاتل الحرية، وأثمرت الأشجار نصراً، فها هي ثمارها دانية فاقطفوها...

برغم حجم الامكانات العسكرية الهائلة المستخدمة من قِبل العدو الصهيونـي وحجم التواطؤ العالمي على المقاومة. وفي المقابل حجم

الصمود والتحدّي لدى مجاهدي المقاومة الإسلامية بإمكانياتهم المتواضعة وقلة عددهم وعتادهم مما أدى إلى تحقيق معجزة ونصراً إلهياً، في وجه أعتى جيش في المنطقة، لينتهي المطاف بجيش العدو ليقف رئيس أركانه وكبير جنرالاته ليتحدث أن سبب الهزيمة الصارخة هو انعدام الخبرة لدى القيادة العسكرية!

من هو صاحب الخبرة إذا كان كبار الجنرالات عديمي الخبرة؟! بعد اعتراف العدو بهزيمته النكراء، بعد النصر المدوّي.

وفي موكب مهيب تحفّه ملائكة السماء نقلت جثامين شهداء الوعد الصادق إلى مثواهم الأخير، إلى أمّهم الثرى بأجسادهم الطاهرة، بينما حملت ملائكة السماء أرواحهم مهلّلة مكبّرة...

نقل جثمان الشهيد رأفت إلى شمسطار:

– لقد عاد رأفت كما وعد يا ابتسام عاد وآخرين من رفاقه تنبض أرواحهم حياة عند ربهم يرزقون، استقبليه بالزغاريد، ونثر الأرزّ والورود... وبالعلم الأصفر لفّي نعشه...

لقد أقبل ونعش النرجس سريره، غسله من ينابيع الكوثر، وكفنه دثار زمرديّ تفوح منه رياحين الشهادة، بأنامل الرحيق حُمل نعشه بعدما ارتوت أرض عامل من دمائه لتزهر ورود الجوري الحمراء، إنه عريس لم يزفّ...

– لو أن رأفت انتظر قليلاً لكان حمل شهادة نجاحه في الصف التاسع ملوحاً بها لوالديه ليباركوا له، لكنه آثر أن ينال الشهادة، التي هي لخاصة أولياء الله.

لقد باركت ابتسام استشهاده وشعرت بالفخر في اللحظة التي عرفت فيها الخبر، امتد يوم عودته حتى الصباح التالي، فراق الأحبة الأليم موجع خاصة بالنسبة للأم، لقد بقيت صورته تداعب جفنيها طوال الليل، برغم فرحتها برأفت الذي أعدته لهذا اليوم، لكن كيف ستكون حياتها بعده؟ وهو الذي كان يملأ أيامها بالحياة، غادر دون أن يترك لها كلمة وداع، أو وصية... خرجت من بيتها، تنعش روحها بنسيم الفجر، تحمل غصن الغار، توجهت إلى المقبرة ترافقها نتف من ذاكرتها التفت إلى قبره، واحتضنته بفرح عظيم: إنه قبر فلذة كبدي، لن أقيم للحزن مأتماً، هكذا هي الحياة، لقاء وفراق، فراق يرحل بالجسد وتبقى الروح والأعمال تعيش في الوجود وعزائي أننا سنلتقي حيث الأمان والنعيم...

لن أقول وداعاً...

مسحت دموعها معبرة عن حجم الصبر والتحمل، والقدرة على مواجهة الآلام...

ويغني الربيع

عــام مــرّ على شهادة رأفـت الذي ترك بصماته فــي كل زاوية من زوايـا المنزل، فيأتي صوته بدفء يرتل كلمات على صفحات قلب أمه فتجـده يحلّـق في سماء حياتها، يتراءى لهـا طيفه يغيب خلف شجرة ليطل أمام أخرى وابتسامة عذبة ترتسم على وجهه ويكاد يصل إليها لكنه لا يصل...

عام هو عمر شجـرة البنفسج التي زرعها في الحديقة بنفسه وها قد أزهرت مع قدوم الربيع، أسرعت خطاها نحو الحديقة بنفسه وها قـد أزهرت مع قدوم الربيع، أسرعت خطاها نحو الحديقة تبحث عن لمســات ابنها عند شجرة البنفسج فرأت بعض ورودها تنحني وكأنها تمد عنقها قائلة: «خذيني إليه» اقتربت منها وشكّلت أجمل باقة، فيما أكملت طريقها نحو روضة الشهداء...

مساء ذلـك اليوم تمّ إبلاغها أنه وكعربون وفاء وحب سيتم افتتاح شارع باسم رأفت، كما سيطلق اسمه على «ثانوية شمسطار الرسمية». في تلك الليلة لم تعرف النوم، كانت تعلم أن صباح الغد مختلف، وأنه بدايــة لاحتفاء من نوع جديد بدأت تستذكـره في كل كلماته وحركاته

صقر من نور

تارة وتـارةً تقلب ألبوم الصور الذي يخصّه، صور تنبض بالحياة كما كان يبتهج عندما تقول له: «اللّه يرضى عليك يا ابني».

اليـوم أقول لك: «بيّض اللّه وجهك كمـا بيّضت وجهي عند مولاتي الزهراء عليها السلام».

خرجـت من الدار، كان رفاقه بانتظارها وانطلقت معهم إلى حيث تجمع الأهالي على طول الشـارع يحملون باقات الورود والياسمين... بدت الحشود كبحر مائج.

وآخـر الدرب وقفت والدته تراقب المشهد بفخر واعتزاز ودموعها قـد أمست ترسم البريق علـى خديها وأخذت تناجيـه: «ما أعظم ما كنـت تصبو إليـه وقد وصلت، حبيبي، الكل يحبـك، انظر إلى قريتك تتباهـى بك وتخلّـد اسمك بعدما ارتديـت رداء الزهد ولم تطلب من الدنيا شيئاً، فما رأت عيناك في هذه الدنيا إلا محطة سفر وقفت فيها لتتزود لآخرتك، هنيئاً لك قد نلت رضوان من اللّه أكبر».

كانـت الأعـلام الصفـراء ترفـرف في كل مـكان، تمـلأ الشوارع والأزقّـة، وقـد رفعت لافتـة كبيرة كتب عليهـا: «شـارع الشهيد رأفت حسين ذياب».

فمن هدوء لهيب الشمعة، وطمأنينة النفس وسكينتها، يتألق رأفت، ويشتد ضياؤه، فيمضي إلى أنوار النفس ويبحث في كينونتها عن منزلة من الفردوس ويحقق لروحـه تساميها ورقيّها في ملكوت الوجود، من هناك يسمع في مدى السماء أن هذا وعد اللّه صدق.

خاتمة

وتستمـر تداعيات حرب تموز على العدو الصهيوني حتى اليوم بعد مرور عامين على النصر الإلهي...

اكتملت فصول الحكاية يوم عودة الأسرى...

عـاد الأسـرى دون منّـة مـن أحـد وبالشـروط التي أرادهـا سيد المقاومة، فيما لبس العدو لباس الذل والعار...

عاد الأسرى على رأسهم عميد الأسرى سمير القنطار

برؤوس مرفوعة وبأجمل عرس وطني

يومها أزهرت دماء الشهداء نصراً جديداً

صنعه كل من كان في موقع الجهاد

في موقع الجراح

في موقع الشهادة

في موقع الصمود

وفـي مقدمة هؤلاء صنعه أيضاً قائـد الانتصاريين الشهيد القائد الحاج عماد مغنية..

«نحن قوم لا نترك أسرانا ومعتقلينا في السجون»

صقر من نور

صدقت الوعد يا سيدنا

يوم عادوا...

«رأفت ذياب» - صقر – طوبى لعطاءك سراجاً منيراً لعتمة

ليالينا...

بوركت يداك...

اليد التي كانت تحمل قلماً وورقة فحملت البندقية لتعلّمنا أنّ

للكلمات قلماً يخطّها ويداً تكتب سطوراً للمجد

فكانت يداً زرعت نصراً من اللّه...

الفهرس